رشدي باشا

لست أحاول في مثل هذه العجالة ان اجلو على القارئ الكريم صورة كاملة لرشدي باشا او ان اترجم لهُ ترجمة وافية تكافئ عظمتهُ العظيمة ؛ فان من فتنة الدعوى ان تظن ان مثل حسين رشدي كلهُ يجتمع في مقالة او في مقالات. انما هو من اولئك الافذاذ المعدودين — إن لم يكن في العالم كلهِ ففي الشرق على الاقل — فما اخلق رشدي بان يتجرد لبحثهِ وتحقيق عبقريتهِ نفر من علماء النفس والتاريخ ،واذن لخرجوا منهُ كل يوم بعظيم

سأتحدث في هذا المقال عن رشدي لا حديث باحث محلل يردُّ غرائزهُ القوية الى مناجمها من قضايا علم النفس ويصل كل ناحية من نواحيهِ بترابها في عظماء الناس ، ولكنني اروي عنهُ حوادث متفرقة شهدتها كلها بنفسي او رويتها عن الثقات الذين لا يتطرق الشك حول خبرهم ، ولربما عرضت لبعضها بشيء من التحليل ، على انني في ذلك اتحرى ان اجمع كل حادثة الى اختها ، واضم كل واقعة الى ما يشابهها حتى يمكن ان ينسق من هذه الاشتات هيكل لرشدي باشا اذا كان ضئيلاً فهو صادق على كل حال

نشأته

رشدي باشا على انهُ نشأ في الحسب لانهُ ابن محمود باشا ابن دبوس اوغلي اوطبوز زاده الكبير الا انهُ لم ينجم في الغنى ولم يتقلب في صدر شبابهِ في النعمة التي يتقلب فيها من تسلسلوا من مثل بيتهِ . ولقد شخصت اليهِ يوماً مع المرحوم والدي لزيارتهِ وهو رئيس وزارة فجعل يتحدث بنعمة الله عليهِ ، وكان مما قال : انهُ كان طالباً في باريس فمات والدهُ المرحوم محمود باشا دبوس اوغلي واذا كل ما تركهُ لبنيه الاربعة (ثلاثة اولاد وبنتين) ستمائة (بنتو) خرج حسين منها بعائلة وخمسين كانت هي كل مادتهِ لطلب العلم ولعيش الجاهد في باريس . فانظر كيف عانى هذا الشاب في صدر العمر وكيف كافح الشهوة والايام ليعيش في باريس عائلة وخمسين (بنتو) لا يرفدها الا نصيب (كمسة الوشل) في وقف دبوس اوغلي الكبير، ويصبر على هذا العيش ويروض النفس لهُ في طمأنينة ورضى حتى يظفر (بالدكتوراه) ويسبق في الامتحان لداتهِ جميعاً !

ولقد كان رشدي باشا لعوباً طروباً فكان يمضي عامهُ الاطول في لهو الشباب وفي

تعب الشباب ، قل ان يحتجز لمذاكرة الدرس ومراجعة الاساتيذ ، حتى اذا كان بينهُ وبين اوان الامتحان شهران مضى الى الحلاق فسألهُ ان يحلق رأسهُ كلهُ بالموسى لكيلا يجرؤ على ان يتدلى بعدها في الشوارع او ينشى الملاهي العامة ، وانقبض هذين الشهرين في غرفتهِ مكبًّا على الدرس جاهداً فيهِ ، حتى اذا مُثل الى ممتحنيهِ لم يقنع بأن يكون طالباً ناجحاً فحسب ، بل لقد تعمد مطاولتهم والولوغ بالتفيد في قضاياهم ، وانتهى بهم او انتهوا بهِ الى الحكم بان هذا التلميذ غير ما خبروا من التلاميذ ، وان هذا الذكاء غير ما عرفوا من الذكاء !

فقد خرج لنا من هذا ان رشدي من يوم تدلّى الى الدنيا تدلّى اليها بخلتين لا بد فيهما لتعليم ولا تدريب ، إنما هما من صنعة الله الذي يقول للشيء كن فيكون ، وهما العزم الجبار والذكاء العجيب !

نظاؤه وفطنته

لقد كان هذا الرجل الى يوم قبض الى رضوان الله متسنّم الذهن ملهب الذكاء ، ولعله كان اذكى من نبهوا من المصريين جيلاً ، وكان حاد الفطنة مرهف الحس ، ولقد كنت تطرح عليهِ القضية تحتاج الى تسريح النظر واجالة الفكر ، وترتيب مقدمات القياس بحيث تسكن كل واحدة منها في موضوعها المقسوم حتى يتهيأ تحلب النتيجة المنطقية ، وكل هذا يحتاج الى جهد ، وكل هذا يحتاج الى بسط في الزمن ومطاولة في التفكر والتدبر ، ولكن رشدي كان يلحظ بك الى النتيجة الصحيحة السليمة قبل ان تتم لفظك . وتفرغ من قولك .

ولقد مضيت يوماً اتفرج في الجمعية التشريعية ، وكان رشدي ، على ما أذكر ، وزيراً للحقانية ، وطُرح على الجمعية مشروع قانون وضعتهُ الحكومة لردم البرك ، وكان الكلام في جزاء من يتخلف من الاهلين عن ردم بركة تدخل في ملكهِ ، وفي ان الحكومة في هذه الحال تردمها بالقوة عنهُ وترجع بوجوه النفقات عليهِ ، فانبت المرحوم عبد اللطيف المكباتي بك وقال : فاذا كان للحكومة بركة فتعذرت على ردمها فحينئذٍ يحق للأهلين ايضاً . . . . فلم يدعهُ رشدي يتم تشريعهُ ، بل لقد جمز من مجلسهِ جزة عنيفة وصاح ملء لهاته هذه ثورة ! . . . فانتفض المجلس كلهُ إنتفاضة عنيفة واحتج على الوزير واقتضاهُ (ان يسحب) هذه الكلمة ، كلمة الثورة (فسحبها) وهو ، ولا ريب ، يعلم ان قولهُ الحق ، وان القوم لم يلحقوهُ ، أو ادركوهُ ولكن لم يريدوا ان يسجّل على جميعهم انها تطلب

الثورة ، (فسحبها) : ولست اشك في انهُ فعل مصانعة لرأي القوم ، والاَّ فاية ثورة اشنع واخبث من ان الحكومة اذا وَثَبت في عمل من اعمالها تقذ الاهلون ذلك بالقوة عليها ، ورجعوا عليها بما بذلوا في ذلك من النفقات ؟ !!!

الواقع ان رشدي باشا كان رجلاً حديد الفطنة ، فلم تكن فطنتهُ بآية حاجة الى ان تتسكع على مقدمات القياس فتجس كلا منها ، حتى اذا استوثقت من سلامتها اقرته في موضعه ، ثم خلصت بعد كل هذا الى النتيجة فاستخرجتها في هوادة ومطمئن اناة ، بل لقد كان يمر بذهنه على هذا كله مر البرق الخاطف فيقبض على النتيجة الصحيحة في أسرع من ردّ الطرف إذ انت تحسبهُ يذكو ذكاء التزود لا يلمح في طريقه او لا يعنى في طريقه الى النتيجة بوجوه الاسباب والعلل في حين قد لمحها جميعاً وعنى بها جميعاً ، وتمكن بذلك الذهن (الاكسبريس) الذي لا يقف على صغار المحطات ، على انهُ حتماً يجوز بها في سبيله جميعاً

ولعل هذه حدة الذهن ، ولعل هذه صولة العقل في حسين رشدي قد حطت من شأنه عند كثير من اولئك الذين لم تهبهم الطبيعة ما وهبتهُ فكانوا أعجز من ان يطيروا في الفهم مطيره ، اذ هو بعد رجل عصبي جائش سريع لماع الذهن تقاولهُ في الامر فيقذفك بحجته على نحو ما يصل هو ويدعك لذهنك المطمئن المتاد ، فلا يسعك ، وأنت بعض معذور ، إلا ان تظن بالرجل عبثاً ، هذا اذا لم تكن وزن الذهن فتحسب ان الرجل قد خرف وأهتر ! ! !

عبقريته

لقد كان رشدي باشا عبقريًّا بقدر ما يمكن ان تأذن به هذه الكلمة ، ولقد سلف عليك انهُ كان في صدر ايامه شابًّا لوباً يعطي شبابه مدى أشره ، فلم يكن كل ما تهيأ لرشدي من العلم الفحل في القانون ، بمختلف فنونه ، ان التعليم ولا طول المراجعة وحفظ القضايا المرسومة ، انما كان ان الاستعداد ، ان العبقرية ، وفي النهاية ان تلك اللطيفة الروحانية التي يهبها الله المتخيرين من عباده فتدركها فيهم لا تملك لها تعليلاً ، ولا تستطيع لسببها تأويلا . كان رشدي في هذا البلد يملك القانون غير مدافع . سلم لهُ بهذا سعد ، وهو من تعرف شدة عقل وكفاية لا يترامى اليها حد ، وسلم لهُ بها عدلي ، وعدلي إذا ذكر أحضرك المثل الاعلى للعلامة الفهم والبصر بالامور

والرأي الصحيح تقطع من دونه جهود التفكير ، وسلّم لهُ بهذا ثروت ، واذا قلت ثروت قلت كل بليغ في الفضل وكل عظيم . وسلم لهُ بها من يلي هؤلاء علماً وبصيرة وجلالة محل وشدة خطر ، إذ رشدي في الحق ، لم يقرأ أكثر مما قرأ غيره ، ولم يتوفر أبلغ من سواه على الدرس والتحصيل . وما شاء الله كان

ولقد اذكر انهُ في احدى جلسات لجنة الدستور ، وكنت من سكرتيريها ، اقترح أحد الاعضاء مبدأ دستورياً لا يحضرني موضوعه الآن فصده رشدي في عنف وقال: ان هذا مبدأ غير مستقيم ولا يمكن ان يؤذن بهِ في قواعد دستور ، فقال العضو ، وهو من الاذكياء المتفقهين : ولكنهُ قد أُخذ بهِ في دستور كذا ، وسمى دولة لعلها من تلك الدولات التي انصدعت عن روسيا ووضعت دساتيرها بعد إذ ضرب النابغ رشدي وصرفه عن درس القوانين . فأكد رشدي انهُ وإن لم ير ذلك الدستور الا انهُ يقرر ان ما زعمهُ العضو لا يمكن ان يكون ! وتحاجّا ساعة ثم انتهيا الى ان يأتي العضو من غده بنسخة ذلك الدستور . ولكنهُ في اليوم الثاني إنما جاء معتذراً بانهُ بعد إذ راجع المادة أدرك ان العجلة زلت بهِ اولَ الامر عن تفهم الكلام . وهكذا كان عز رشدي نيراً سامياً مطبوعاً على القانون والقانون ، صادق الحكم فيما قرأ وما لم يقرأ من احكامهِ ومبادئهِ

قوة صبره

كان رشدي باشا من أشد خلق الله حجة وأمضاهم قولاً ، يحكم لهُ بهذا كل من اوتي فطنة يلمح بها ما يتراآى لذهنه اثناء التدليل من فنون الاسباب والعلل ، على انهُ قد اجتمع عليهِ الى تلك الحالة « العصبية » ضعف المادة في لغة العرب ، فلم يكن لبيانه اذا تكلم بهذه اللغة او كتب من الوضوح ما يتوافى لجلالة معانيه ويواتي براعة تدليله . ولكنهُ برغم هذا كان اذا كتب ارتفعت قوة معانيه بعباراته العربية حتى يجيء منها أحياناً بالرائع الجزل الذي لا ينبأ لمن لهُ مثل حظه القليل من لغة العرب والتفقه في أدبها

وإني لاذكر انهُ اختلف يوماً مع بعض المصطفين الاعلام من اعضاء لجنة الدستور على مسألة ، لا محل لايرادها الآن ، فذهب الى رأي أزعجهم وبهتهم بالانكار والاحتجاج ، وكلما سألهم ان يصبروا حتى يدلي اليهم بحجته صاحوا في وجههِ ودافعوه بغليظ الكلام . واخيراً وثب من مجلسه واهاب بهم باعلا ما اتسعت لهُ لهاته : يا حضرات السادة : « استمعوا لي حتى افرغ من حجتي ثم فندوها بكل ما عندكم من

حجة ودليل» ثم اطرق قليلاً وعاد فقال في رفق ولين إلقاء : «ولكنكم لن تستطيعوا»! فسكت القوم وتكلم رشدي ثم تكلم ، فما هو والله إلا ان راح يلعب بالالباب لعباً ، وما هو إلا ان راح يستعرض كل ادلتهم وما حضلوا من حجج فيشد وثاقها ثم يلقيها بين يديه واحدة بعد واحدة والقوم ذاهلون عن مصيرهم بما تداخلهم من العجب ومن الطرب ، حتى أذا ذابت آيتهم تحت لسانه كما يذوب الثلج في اليوم القائظ اقبل على معارضيه في تؤدة وإطمئنان وقال لهم: اذن فتكلموا ، فما هي الا رؤوس منفضة وافواه مفغورة، ثم تصفيق يرتفع الى السماء من اعجاب ومن افتتان ! ! !

ولقد حدثت احداث الاسكندرية في مايو سنة ١٩٢١ ورشدي مع عدلي في لندن يفاوضان كيرزن في المسألة المصرية . وكانت السلطة العسكرية قد ملكت الامر كله عن الحكومة المصرية ، وتولت هي التحقيق بقوة الاحكام العرفية التي كانت مبسوطة يومئذ على البلاد . فلما انتهت المفاوضات الى الكلام في حماية الاجانب وعارض المفاوضون المصريون في ان يكون هذا الى انجلترا دفع اللورد كيرزن اليهم بتحقيق السلطة العسكرية في حوادث الاسكندرية وما دمغ المصريين ظلماً بالوان الوحشية وما اضاف اليهم من امور تقشعر منها الجلود . فتناول رشدي باشا هذا التحقيق وبداهُ صفر من كل شيء ، لان التحقيق، كما قلت لك ، استقلت به السلطة العسكرية، فابت على رشدي عزيمتهُ وابت عليه وطنيتهُ وابت عليه عبقريتهُ الا ان يكب ليلتهُ كلها على هذا التحقيق ، والله يعلم ماذا بذل من مخه ، والله يعلم ماذا هراق من ذكائه حتى اتسق لهُ في الصباح تقرير يعصف بهذا التحقيق عصفاً ويشهدهُ على نفسه بالبُطل وشدة الحمل على المصريين ، ثم مضى بهِ الى لورد كيرزن فالقاهُ اليه ، وما إن قرأهُ حتى سأل ان يتقاص الطرفان . وكذلك اختلت حوادث الاسكندرية الطريق !

ثم لا يعرف احد ما بذل رشدي باشا ليلتئذٍ من عزم وذكاء ليدفع عن وطنه كل هذا البلاء ، ولكن كثيرين يعلمون انهُ بذل الصحة، او على الصحيح بذل الحياة ، لانهُ لم يدُر عليه يوم او يومان حتى ضربهُ الفالج فابطلهُ حيناً ثم اتى في النهاية على حياته العزيزة الغالية

شجاعته

ولقد كان رشدي رجلاً شجاعاً كل الشجاع ، يجهر بكل ما يعتقد واقعاً كلامه حيث وقع لا يبالي في ذلك شيئاً ولا يبالي فيه احداً . وإن امرءاً كرشدي قوي العزم عظيم النزاهة

وافر الاخلاص شديد التمسك من النفس لا يجد أية حاجة لان يراني الناس او يماريهم ويتحرَّف فهم ، بل هو كل حقيق بأن يعد كفئه لاحتمال كل ما يحملهُ سعيه من التبعات

ولست أريد ان اعرض لشأنه في اعقاب سنة ١٩١٤ فذلك ، كما اشار رئيس مجلس النواب ووكيل مجلس الشيوخ في تأبينه ، من حق المستقبل يحكم فيه بعد ان يطالع ما طاف به من الظروف وما اتكأ عليه من الاسانيد . إلاَّ اني في هذا الباب لا أنسى أن رشدي كان شجاعاً في احتمال تبعة ما وقع على يديه وكان لهُ (بالطبع) رأي فيه إن خيراً وان شرًّا . وهو على انهُ ، كما علمت ، قد راجع الكثيرين من اصدقائه في الامر فأقروهُ واجازوهُ ، الاَّ ان شجاعتهُ أبت عليه في معرض الجدال ان يشرك معهُ في تبعة الامر احداً ، بل لقد مضى بها وحده محتسباً انصافه عند التاريخ وحده

لقد تعلم انهُ سيرِ سفينة الحكم طوال مدة الحرب، ولقد تعلم ما حاق بمصر ايام الحرب من هول وشدة، ولقد تعلم ما كان للسلطة العسكرية من صولة وقوة ، وغداً ستعلم ما كان لرشدي باشا من مواقف يكتب بها العاديات عن المصريين لا يقفها الاَّ الرجل الشجاع

وجاءت الهدنة العامة ، وأعد الجبار السر بروبات عدتهُ لاقتحام مصر واخرج مشروعه الذي يسل به الحكم من ايدي المصريين سلاً . وخاف الناس وانقبضوا في أكسار دورهم من خوف ورهبة، وبرز لهُ رشدي بتقريره الوطني الخالد على وجه الدهر. وسرعان ما كبرهُ به تكبيراً ، وكان ذلك اول آذان بالثورة المصرية . حتى اذا تنذر عليه الانجليز ودلوا بقوتهم، اضرب ، وهو رئيس الوزارة ، عن الحكم أشهراً ، فكان صنيعه حدوة للموظفين فأضربوا جميعاً وكان اضرابهم أبلغ مظهر للنهضة المصرية. ولقد سمعت منهُ رحمهُ الله ان الحبال قد فتلت لرقبته مرتين فما أبه ولا بالى في سبيل وطنه ، وكذلك يكون الرجل الندب الشجاع

ومما يذكر لهُ في هذا الباب انهُ كان في مفاوضات سنة ١٩٢١ وجرى الكلام في الاحتلال الانجليزي ، وأصرَّ المفاوضون المصريون على طلب الجلاء ، فقال لهم اللورد كيرزن في شيء من التهكم : واذا سحبنا عسكرنا من بلادكم ألا يجوز ان تحتلها اليونان في اليوم الثاني ؟ ! فانتفض رشدي انتفاضة شديدة واجابهُ من فوره : لا تنس يا لورد ان اسلافك حين حاولوا غزو مصر القاهم هؤلاء المصريون في البحر، وكان ذلك بقيادة جدي أنا ! (يريد رحمهُ الله موقعة رشيد) فوجم اللورد كيرزن ووجم الحاضرون جميعاً ، وبعد سكوت طويل او قصير صرف اللورد الحديث الى شأن آخر !

ثراؤه

تقلب رشدي في مناصب الحكم حتى صارت اليه رياسة الوزارة ، وحتى طرح القدر بين يديه يوماً امر مصر كلها . وكان طوال زمن الحرب كل شيء (في الجهة المصرية على الاقل) فما التمس قط لنفسه ولا لاحد ممن يلوذون به مغنماً من اي نوع كان ، وعزيز عليّ ان اتهمه بشرف رشدي وان اشيد بنبل نفسه ، فان مثله لاجل من ان تلحق ذمته التهم . ولقد وافقته مرة في مكتب المرحوم احمد الازهري بك من كبار موظفي مصلحة الاملاك ، وهو يسأله في تأجيل دين عليه للمصلحة ، ذهب عني قدره بالضبط ، على انه على كل حال يضطرب بين السبعمائة جنيه والثمانمائة . ثم التفت الى بعض الحاضرين وقال في مرارة أردفها بضحكة مصنوعة : يقولون اني بعت مصر بثلاثة ملايين فهلا دفعوا منها لمصلحة الاملاك هذا المبلغ واخذوا لانفسهم الباقي ؟

عطفه وبره

كان رشدي نبيل الاحساس بالغاً من طيبة القلب مبلغاً لا يكاد يلحقه فيه انسان . فما اصاب عانياً او مدنفاً او امرءاً تغير له الزمن الا احس بانه هو المسئول عما ضربته به الايام . وكثيراً ما تتضح عنا هذا الرجل الشجاع بالدمع اذا رأى مكلوماً في جسمه او ممتحناً في اسباب حياته . اما ماله واما جاهه العريض فذلك كله نهب مقسم بين العافين من الناس . ولو كان رشدي باشا يملك كل ما في الدنيا من مال لخرج عنه لطالبيه في سماحة واسجاح . ولقد تقسم وقته ، في اخريات سنيه ، بين ان يفرق على الناس كل ما احتوته محفظته ، وبين ان يطوف بهم الدواوين يشفع لهم في قضاء الحاجات . ولقد اسرف في هذا حتى ابتذلت شفاعته او كادت تبتذل عند الحكام لشدة افراطه في الرجاء ، على جلالة محله لديهم وسمو قدره عندهم . وحتى خرج من الدنيا صفراً الا من الشرف والا من أعلى الذكرى لاعلى الرجال

وبعد فلقد خسرت مصر من غير شك بموت رشدي باشا مجموعة من المواهب جليلة غالية . واذا كانت الايام تنجب لنا رجلاً في علمه ، او في عبقريته ، او في شجاعته ، او في وطنيته ، او في طيبة قلبه ، او في نبل اخلاقه ، او في كرم يده . فهيهات ان تنجب رجلاً جمع معاً كل هذه الخلال كما جمعها فقيدنا العظيم ، وان لم يكن ذلك على الله بعسير

عبد العزيز البشري